**بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن ولاه، أما بعد.**

**فيسر إخوانكم في تسجيلات السلف الصالح للإنتاج الإعلامي والتوزيع بالإسكندرية أن يقدموا لكم هذه المادة، والتي هي بعنوان "رجل لكل العصور"، لفضيلة الشيخ الدكتور: محمد إسماعيل، والآن نترككم مع فضيلة الشيخ.**

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى لا سيما عبده المصطفى، وآله المستكملين الشرف، أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد -صلى الله عليه وسلم- وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أما بعد.

فإذا كنا تناولنا في المرات السابقة قضية العاطفة الإيمانية، والربانية كما أمرنا الله -سبحانه وتعالى- فقال: { وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ }، وتعرضنا بالذات عند مدارسة بعض الفصول من كتاب ربانية لا رهبانية للشيخ أبي الحسن الندوي رحمه الله تعالى إلى الجانب نستطيع أن نقول المشرق الذي يصح أن نتقبله مما يسمى بالصوفية، أو بتعبير أدق حاولنا أن نبرز أن هذا الجانب الوجداني أو الجانب الإيماني أو جانب العاطفة الإيمانية هو أصل من الإسلام لكن الاصطلاح الطارئ وهو اصطلاح التصوف جنى على هذه الحقيقة ونفر كثيرًا من الناس منها، حتى حصل بذلك خلط كبير بل حرمان من كثير من منافع هذا الجانب.

ذكرنا أن تسرع بعض الناس في إصدار الحكم على من ينتمي إلى الصوفية أو يذكر لفظة الصوفية أوجد نوعًا من الخلل والظلم لأناس من العلماء الربانيين ممن نسبوا إلى هذا الاتجاه، وقلنا إن الجناية كلها نتجت إلى هذا الاسم المحدث، لأنه لفظ محدث لا أصل له في الإسلام، ثم إن الجناية زادت حينما التحق بهذا الخط المسمى بالصوفي قوم مجاذفون مغالون في البدع والضلالات، التي وصلت إلى حد الإلحاد والقول بوحدة الوجود، ونحو ذلك من الطامات المعروفة، فلن نعيد ما كنا ذكرنا من قبل لكن نقول نريد أن نزيد الأمر وضوحًا ونربط بين هذا الموضوع الذي تناولنا وبين الحلقات السابقة التي كنا شرعنا فيها بعنوان رجل لكل العصور، وتعرضنا فيها لجوانب كثيرة من جوانب علم وحياة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

سوف نجتهد الآن في الشروع في دراسة بدراسة رجلين أو بتعبير أدق منهجين نقارن بين منهجين في صورة رجلين، لأن كلًا من الرجلين فعلًا يمثل أصدق تمثيل المنهج الذي ينتسب إليه، بين شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ممثلًا لأهل السنة والجماعة، وبين أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى، باعتباره ممثلًا للصوفية وأيضًا ممثلًا للأشعرية وللفلاسفة والمتكلمين كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

كنا منذ عهد طويل فسرنا الكلام في محاضرات بعنوان (رحلة العابد الإمام أبي حامد الغزالي)، هذه الرحلة في غاية الأهمية بالنسبة إلينا خاصة في هذا الزمان، لأننا حينما ندرس حياة شيخ الإسلام ابن تيمية باعتباره ممثلًا للمنهج السلفي وحياة الإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى، سوف ندرج بغاية الوضوح إلى من ينبغي أن ننحاز ومن الذي ينبغي أن نستمسك بغرزه ونهتدي بهديه، ونتخذه نبراسًا لنا في زحام الأفكار والمناهج في مثل هذا الزمان.

ممن سبق إلى عقد هذه المقارنة العلامة الجليل الدكتور محمد رشاد سالم رحمه الله تعالى له محاضرة ألقاها سنة 1392 يعني في مارس 1972 ألقى محاضرة بعنوان (مقارنة بين الغزالي وابن تيمية)، ثم إنه حولها بعد ذلك إلى كتيب صغير بعنوان مقارنة بين الغزالي وابن تيمية فنذكركم بمقدمة هذه الرسالة لأنها في غاية الأهمية، يقول الدكتور رشاد سالم رحمه الله تعالى:

**المتن**

ولا شك أن الغزالي وابن تيمية من أكبر علماء هذه الأمة، وهما من الرجال الذين ملئوا الدنيا، وشغلوا الناس، وقد أحب كلاً منهما فريق من المسلمين، حتى وصلوا في محبته إلى درجة التعصب، والواقع أنني لا أقصد بالمقارنة بين شخصية وآراء الرجلين مجرد المتعة الذهنية، بل إنني أقصد بذلك الموازنة والمفاضلة بين أكبر تيارين فكريين يؤثران على المسلمين حتى أيامنا هذه.

فـالغزالي يمثل التيار الأشعري الصوفي، وابن تيمية يمثل التيار السني السلفي، ولكل من التيارين أنصاره ورجاله وأحسب أن الغلبة في أكثر البلاد الإسلامية هي حتى الآن للتيار الأشعري الصوفي وهذا على الرغم من أن التيار الثاني يمتد ويقوى يومًا بعد يوم.

**الشرح**

يعني لو المحاضرة سنة 72 ونحن مثلا 2004 يبقى 32 سنة أعتقد الشيخ لو امتد عمره المبارك إلى يومنا هذا لكان غير نسبيًا في هذه الملاحظة بحمد الله تعالى، لأنه صحيح قد يكون الغلبة من الناحية العددية للتيار الأشعري الصوفي، لكن من الناحية النوعية حصل في هذا الجيل الذي مضى بلا شك حصل تغير جذري كبير في عهد الصحوة الإسلامية التي كانت باكورتها يمكن بعد محاضرة الشيخ بسنوات قليلة كانت بدأت الصحوة في أوجها وحصل لا شك تغييرًا ميدانيًا حقيقيًا بفضل الله تعالى ثم بفضل أئمة المنهج السلفي رحم الله أمواتهم وبارك في عمر أحيائهم لا شك أنهم تركوا انطباعًا عميقًا في هذا الجيل والفرق شاسع جدًا إذا قارنا الأوضاع بين سنة 72 والآن في سنة 2004 وليس هذا مجال للتفصيل فيها وإن كان بحثًا يستحق فعلًا أن يفرد عن الأثر الميداني للدعوة السلفية في مجتمعاتها.

لكن قد يأتي لهذا وقته فيما بعد إن شاء الله تعالى، يقول الشيخ رشاد سالم رحمه الله تعالى:

**المتن**

وينقل لنا الشيخ مصطفى عبد الرزاق في كتابه التمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ما ذكره المقريزي في خططه من انتشار مذهب الأشعري، وشهرته بأمصار الإسلام إلى أن ظهر ابن تيمية فتصدى للرد على مذهب الأشاعرة.

**الشرح**

يعني بدأ الانحدار إذا جاز التعبير في قوة وسيطرة وهيمنة الاتجاه الأشعري بدأ ببزوغ فجر شيخ الإسلام ابن تيمية منذ أن ظهر ابن تيمية وكأن الأمة كانت على موعد مع مولد هذا الإمام ليحصل هذا التصحيح ثورة التصحيح في الأمة الإسلامية، وبدأ في ذلك الوقت نجم هذه المدرسة يبزغ جيلًا بعد جيل، إلى أن حصل فعلًا أثر عميق جدًا في تميز المنهج السلفي بالنسبة لما كان عليه، حيث كان السليون منقمعين أحيانًا مستخفين لا يستطيعون أن يجهروا لا بأسمائهم لا على المؤلفات ولا بآرائهم بل كان يحصل من الاضطهاد الشيء العظيم كما قدمنا ذلك من قبل، فيذكر المقريزي في خططه انتشار المذهب الأشعري وشهرته في أنصار الإسلام، إلى أن ظهر ابن تيمية هذا كلام ابن تيمية.

إلى أن ظهر ابن تيمية فتصدى للرد على مذهب الأشعري وصدع بالنكير عليهم وعلى الرافضة والصوفية، ووافقه أناس وعارضه آخرون، ثم يقول الشيخ مصطفى عبد الرزاق: أما النهضة الحديثة لعلم الكلام فتقوم على نوع من التنافس، بين مذهب الأشعرية ومذهب ابن تيمية، وإنا لنشهد تسابقًا في نشر كتب الأشعري وكتب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، ويسمي أنصار هذا المذهب الأخير أنفسهم بالسلفية ولعل الغلبة في بلاد الإسلام لا تزال إلى اليوم لمذهب الأشاعرة، انتهى النقل عن الشيخ مصطفى عبد الرزاق.

ثم يقول الشيخ الدكتور سالم وهو ينهي هذه المقدمة يقول:

**المتن**

ولن أحاول أن أدعي حيازاً كاذباً بين الاتجاهين، بل إنني أحدد موقفي بوضوح فأقول: إنني أعتقد أن نهضة المسلمين وانبعاثهم من رقدتهم وغفوتهم، إنما تتوقف إلى حد كبير على مدى أخذهم بهذا التيار السلفي السني، أخذاً قائماً على الفهم والدراسة والعلم والعمل بالعلم، لا أخذاً قائماً على التعصب الفارغ والحماسة العاطفية.

على أن هذا يرتبط عندي بأن أخذ بالرأي الذي يوافق الكتاب والسنة، ويقوم عليه الدليل والبرهان، بدون عصبية أو اندفاع للحب والكره.

**الشرح**

صدر الكلام ببيان ثقافة الغزالي ومنهجه في البحث، يقول: سمي الغزالي بحجة الإسلام وبالإمام، مع أن ثقافته الإسلامية كانت محدودة خاصة في علم الحديث، ولذلك كثرة الأحاديث الضعيفة في كتبه عامة وفي كتاب الإحياء بوجه خاص، وسجل عليه ذلك أكثر من عالم مثل أبي بكر الطرطوشي الذي قال عنه، شحن أبو حامد الإحياء بالكذب على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فلا أعلم كتابًا على بسيط الأرض أكثر كذبًا منه.

يقول الإمام الطرطشوشي: شحن أبو حامد الإحياء بالكذب أو بالأحاديث المكذوبة على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، طبعًا هذا المقصود كما قال المقدسي في مختصر منهاج القاصدين، قال: لا نقول إنه افتراها لكنه أثبتها كما اقتراها، يعني قرأها في كتب فأثبتها وليس المقصود أن الغزالي نفسه تعمد الكذب على النبي -صلى الله عليه وسلم-، لكن المقصود أنه لم يحقق الأحاديث لأن بضاعته في الحديث كانت قليلة جدًا جدًا باعترافه هو نفسه حينما قال: بضاعتي في علم الحديث مزجى، يعني قليلة أنا فقير هو مسكين في علم الحديث.

فده من أول ما يبرز لنا من الفروق الخطيرة والجسيمة بين منهج ابن تيمية وبين منهج الغزالي، لأن ابن تيمية إمام محقق، حتى قال عنه ابن الوردي: كل حديث لا يعلمه ابن تيمية فليس بحديث، فشيخ الإسلام ابن تيمية على مستوى عالٍ جدًا م التضلع بمعرفة السنن والآثار وعلم الرجال، وعلوم الحديث، وله في هذا باعٌ عظيم لا يستطيع أحد أن ينكره بخلاف طبعًا الغزالي، هذا أول ما يبرز لنا من ملامح المقارنة بين منهج الرجلين.

يقول الطرطشي فلا أعلم كتابًا على بسيط الأرض أكثر كذبًا منه، أكثر كذبًا من كتاب الإحياء، وذكر عنه ابن الجوزي في كتابيه المنتظم وتلبيس إبليس أشياء كثيرة منها قوله في المنتظم وأخذ في تصنيف كتاب الإحياء في القدس، ثم أمته بدمشق، إلا أنه وضعه على مذهب الصوفية، وترك فيه قانون الفقه.

ترك العلم وترك الفقه والجوانب الفقهية ومشى على التخبط وضلال الصوفية، وقال: أيضًا ثم إنه ناظر في كتاب أبا طالب المكي وهو قوت القلوب، وكلام المتصوفة القدماء فاجتذبه ذلك بمرة عما يوجبه الفقه، يعني كانت قوة المغناطيس في كتب هؤلاء الصوفية، قوت القلوب ونحوه أقوى بكثير جاذبته إليها بقدر ما أبعدته عن كتب الفقه وضوابط الفقه.

يقول: فاجتذبه ذلك بمرة عما يُجبه الفقه، وذكر في كتابه الإحياء من الأحاديث الموضوعة وما لا يصلح غير قليل، وسبب ذلك قلة معرفته بالنقل، وعن ابن النجار، أن الغزالي لم يكن له إسناد ولا طلب شيئًا من الحديث، يقول: ولم أرى له إلا حديثًا واحدًا، لم أرى له حديثًا مسندًا إلى حديثًا واحدًا بخلاف طبعًا الأئمة في مثل زمان الغزالي العالم كان لا بد أن يتضلع ويكون له مشيخة وأسانيد ونحو ذلك، فالغزالي يقول عنه ابن النجار كما في طبقات الشافعية، وطبعًا طبقات الشافعية للسبكي والسبكي متعصب جدًا للغزالي، ومع ذلك نقل في كتابه طبقات الشافعية عن ابن النجار أن الغزالي لم يكن له إسناد، ولا طلب شيئًا من الحديث ولم أرى له إلا حديثًا واحدًا، وقال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء: ولم يكن له علم بالآثار، ولا خبرة بالسنن النبوية القاضية على العقل، ويعترف الغزالي نفسه بذلك فيقول في رسالة قانون التأويل: وبضاعتي في علم الحديث مجزاه، أي قليلة.

أما جوانب ثقافته الأخرى، فابن تيمية رحمه الله تعالى يحللها ويردها إلى مصادرها في رسالته السبعينية، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ومما يدل على عمق معرفة شيخ الإسلام بالرجال، وتحليله يعني لو هو عزى كل جانب من جوانب ثقافة الغزالي عزاه إلى مصدره بالضبط من أين أتى هذا البلاء للغزالي، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وأبو حامد مادته الكلامية من كلام شيخه، من شيخه؟ الجويني أحسنت إمام الحرمين، الإمام الجويني، مادته الكلامية من كلام شيخه يقصد الإمام الجويني في الإرشاد والشامل ونحوها، مضمومًا إلى ما تلقاه من القاضي أبي بكر الباقلاني.

لا شك أن الباقلاني معروف من كبار أئمة الأشاعرة، يبقى ده علم الكلام، ولكنه في أصول الفقه سلك في الغالب مذهب ابن الباقلاني مذهب الواقفة وتصويب المجتهدين ونحو ذلك، وضم إلى ذلك ما أخذه من كلام أبي زيد الدبوسي وغيره من القياس ونحوه، وأما في الكلام فطريقته طريقة شيخه دون القاضي أبي بكر، فشيخه في أصول الفقه يميل إلى مذهب الشافعي وطريقة الفقهاء التي هي أصوب من طريقة الواقفة، ومادة أبي حامد في الفلسفة من كلام ابن سينا.

بل البلاء الذي دخل عليه في الفلسفة كان بسبب ضلالات ابن سينا، ومادة أبي حامد في الفلسفة من كلام ابن سينا، ولهذا يُقال أبو حامد أمرضه الشفاء، والشفاء مقصود به كتاب الشفاء لابن سينا، هو الذي ابتلاه بمرض الفلسفة ومادة أبي حامد في الفلسفة من كلام ابن سينا ولهذا يقال أبو حامد أمرضه الشفاء، ومن كلام أصحاب رسائل إخوان الصفا طبعًا دول مجموعة من الذين تبنوا أفكارًا اعتقادية إلحادية في غاية الانحراف، وبعض الناس بيغتر باللقب الجميل الذي يحملونه، لكن هذا من الأمور الخاضعة إخوان الصفا من الضلال والملاحدة المنحرفين فأخذ أيضًا بجانب الكلام في الفلسفة من كلام ابن سينا ومن كلام أصحاب إخوان الصفا، ورسائل أبي حيان التوحيدي ونحو ذلك.

وأما في التصوف وهو أجل علومه وبه نبل، فأكثر مادته من كلام الشيخ أبي طالب المكي الذي يذكره في المنجيات، فإن عامته مأخوذ من كلام أبي طالب، ولكن كان كلام أبي طالب أشد وأعلى وما يذكره في ربع المهلكات فأخذ غالبه من كلام الحارث المحاسبي في الرعاية، ثم يقول الشيخ رشاد سالم رحمه الله تعالى: وكلام ابن تيمية في غاية الدقة، وقد ذكر بعضه غيره من العلماء، ومنهم تلميذ الغزالي القاضي أبو بكر بن العربي الذي قال بحسب ما رواه الذهبي شيخنا أبو حامد بلع الفلاسفة وأراد أن يتقيهأهم فما استطاع، وهو تعبير معبر جدًا عن هذا المعنى، إنه دخل في غمار الفلاسفة صحيح ألف في بيان تهافتهم وضلالهم لكن لم يستطع أبو حامد أن يتخلص من ضلالات الفلاسفة بالكلية، شيخنا أبو حامد بلع الفلاسفة يعني أدخلهم في بطنه وأراد أن يتقيؤهم فما استطاع يعني ما استطاع أن يتحرر من سلطان الفلاسفة وانحرافاتهم.

وقال عنه أبو بكر الطرطوشي المتوفى سنة 520 رحمه الله إن الغزالي شبك كتابه الإحياء بمذاهب الفلاسفة ومعاني رسائل إخوان الصفا، وهم يرون النبوة مكتسبة، يعني النبوة يرونها ليست وهبية وإنما هي كسبية، يعني من اجتهد يستطيع أن يصل إلى مقام النبوة، واضح فهذا من ضلالات الفلاسفة كما هو معلوم.

ودي مصيبة كتاب الإحياء اللي هو دستور التصوف يعتبر، إن بعض الناس تظن كتاب الإحياء هو كتاب رقائق وأخلاق، لا كتاب الإحياء مشحون بضلالات عقلية في غاية الخطورة، ولهذا سوف نجتهد في تسليط الضوء عليه، وهنا هذه العبارة أيضًا للإمام الطرطوشي رحمه الله تعالى معبرة جدًا عن هذا يقول شبك يعني ايه أقحم وأدخل وأدخل في نسيج الرقائق التي تكلم عنها في الإحياء خيوطًا من كلام الفلاسفة ورسائل إخوان الصفا وهم يرون النبوة مكتسبة.

كذلك ذكر الذهبي وأبو عبد الله محمد بن علي الماذري المتوفى سنة 536 أنه تأثر بالفلسفة وبإخوان رسائل الصفا، وزاد الماذري أنه تأثر بكتب أبو حيان التوحيدي وقد سجل كثير من الباحثين المحدثين والمعاصرين تأثره بالفلسفة وبابن سينا بوجه خاص، وقد فصل الدكتور سليمان دنيا في كتابه الحقيقة في نظر الغزالين الكلام في ذلك تفصيلًا، وهو يرى أن الغزالي ألف كتبًا في علم الكلام بل وفي الفلسفة مثل كتاب تهافت الفلاسفة، ليرضي العوام، ودي خطيرة من أخطر الأشياء في منهج الغزالي، أنه ماكانش عنده حقيقة مطلقة عنده الحقيقة نسبية، يعني إذا كنت في وسط العوام تقول لهم كلام، إن كنت في وسط الخواص ممكن تقول كلام مغاير تمامًا، فدي معروفة في ملامح التلون في كلام الغزالي رحمه الله تعالى.

يقول الدكتور سليمان دنيا: أن الغزالي ألف كتبًا في علم الكلام بل وفي الفلسفة مثل كتاب تهافت الفلاسفة ليرضي العوام، ولكنها لا تمثل آراء الغزالي الحقيقية، وهو يستشهد بكلام الغزالي في كتابه جواهر القرآن حيث يقول: ومقصود هذا العلم، ده كلام الغزالي، ومقصود هذا العلم اللي هو علم الكلام، حراسة عقيدة العوام، عن تشويش المبتدعة، ولا يكون هذا العلم ماليًا بكشف الحقائق، وبجنسه يتعلق الكتاب الذي صنفناه في تهافت الفلاسفة.

يعني إني أؤلف هذا الكلام أنهج فيه منهج علماء الكلام لأحمي عقيدة العوام، لحماية عقيدة العوام، ولا يكون هذا العلم مليًا بكشف الحقائق، وبجنسه يتعلق الكتاب الذي صنفناه في تهاوفت الفلاسفة يبقى ده كلام عشان العوام، والذي أوردناه في الرد على الباطنية في الكتاب الملقب بالمستظهري وفي كتاب حجة الحق وقواصم الباطنية وكتاب مفصل الخلاف في أصول الدين، ولهذا العلم آلة يعرف بها طريق المجادلة بل طرق المحاجة بالبرهان الحقيقي، وقد أودعانه كتاب محك النظر، وكتاب معيار العلم على وجه لا يلقى مثله للفقهاء والمتكلمين، يعني المفروض الكلام ده ما يتقالش للفقهاء ولا المتكلمين ده بقى كلام لمين؟ لناس معينين.

يقول على وجه لا يلقى مثله للفقهاء والمتكلمين ولا يثق بحقيقة الحجة والشبهة من لم يحط بهما علمًا، بيستنتج الدكتور سليمان دنيا من ذلك أن كلام الغزالي أن أفكار الفلاسفة ليست باطلة عنده في ذاتها، وإنما الباطل هو ذكرها للعوام، لكن هي في ذاتها ليست باطلة عنده.

ودومري وات اللي هو واحد من المستشرقين يذهب نفس مذهب الدكتور سليمان دنيا بدليل أنه يلخص عمل الغزالي بعبارة واحدة ذكر بها أن الغزالي أرسى علم الكلام على قاعدة فلسفية، وقد اعترف الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال لتأثره ببعض كتب الشيوخ الصوفية، فقال: فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب لأبي طالب المكي رحمه الله وكتب الحارث المحاسبي والمتفرقات المأثورات عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطاني قدس الله أرواحهم وغيرهم من المشايخ.

وطبعًا هناك تشابه كبير جدًا بين ترتيب كتاب الإحياء وبين ترتيب كتاب قوت القلوب لأبي طالب المكي، بجانب أيضًا تقريبًا نفس الكلام في باب التوكل والمحبة.

وقد أشار كثير من الباحثين والعلماء إلى اقتراب الغزالي وتردده وتناقضه ومما ذكر ذلك ابن طفيل في كتابه حي بن يقظان، فهو يقول عنه وأما كتب الشيخ أبي حامد الغزالي فهي بحسب مخاطبته للجمهور، ذاك كتاب حي بن يقظان، يقول: وأما كتب الشيخ أبي حامد الغزالي فهي بحسب مخاطبته للجمهور يربط في موضع ويحل في موضع آخر، الكلام اللي يربطه في مكان يحله في مكان ينقضه في مكان آخر، يربط في موضع ويحل في آخر، ويكفر في أشياء ثم ينتحلها، يتبناها مع إن في مكان آخر قال: إن الذي يتبنى هذا الكلام كفر، ثم إنه من جملة ما كفر به الفلاسفة في كتاب التهافت إنكارهم لحشر الأجساد، وإثباتهم للثواب والعقاب للنفوس خاصة.

ثم قال في أول كتاب الميزان: إن هذا الاعتقاد هو اعتقاد شيوخ الصوفية على القطع، ثم قال في كتابه المنقذ الضلال والمفصح عن الأحوال إن اعتقاده هو كاعتقاد الصوفية وأن أمره إنما وقف على ذلك بعد طول بحث، نجد اضطراب وهذه برده من سمات منهج الغزالي الاضطراب والتردد الكثير.

والدكتور سليمان دنيا ينفي في كتابه أن يكون الغزالي قائلًا بالبعث الروحاني، ولكنه يعود في مواضع أخرى فيؤكد أنه تابع للفلاسفة عامة، وابن سينا خاصة في أكثر أقوالهم وقد تابع ابن سينا متابعة تامة في كلامه عن النفس خاصة في كتابه معارج القدس في مدارج معرفة النفس، نفس الرأي يذكره ابن تيمية في الرسالة السبعينية حيث يقول: وصاحب الجواهر يعني الغزالي لكثرة نظره في كلامهم لكثرة نظره في كلام هؤلاء لفلاسفة واستمداده منهم مزج في كلامه كثيرًا من كلامهم وإن كان قد يكفرهم بكثير مما يوافقهم عليه في موضع آخر، وفي آواخر كلامه قطع بأن كلامهم لا يفيد علمًا ولا يقينًا، بل وكذلك قطع في كلام المتكلمين، وآخر ما اشتغل به النظر في صحيح البخاري ومسلم ومات وهو مشتغل بذلك.

يعني رحلة الغزالي رحلة شيقة يعني من ناحية أعتبرها رحلة الغزالي بالذات أقوى دليل على أن المذهب السلفي هو مذهب الحق، لأن الغزالي تجول في كل اتجاهات الضلال المعروفة في عصره، وخلص إلى أن منهج أهل الحق وأهل الحديث هو الطريق الذي لا طريق صحيحًا غيره ومن ثم أراد في اللحظات الأخيرة أو الفترات الأخيرة في حياته أن يعوض ما فاته في عمره الماضي، فانكب أو أكب في كتب الحديث حتى قالوا إنه مات والبخاري على صدره.

يريد أن يكفر عن ما مضى وينهل من العلم الحقيقي، علم الحديث وعلم النقل ونحو ذلك، لهذا كنا نسميها رحلة الإمام العائد دار وتجول وتلون كثيرًا لكنه في النهاية عاد إلى المنهج الحق منهج أهل السنة والجماعة.

وقد حدثنا الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال عن الشك الذي خامر عقله، وعن الأزمة العقلية والنفسية التي عارضت له بعد ذلك، فذكر أنه شك في المحسوسات ثم في العقليات حتى أنه ظل كما حدثنا عن نفسه قريبًا من شهرين يقول ظللت قريبًا من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال لا بحكم النقص والمقال حتى شفا الله تعالى من ذلك المرض.

لما نقارن بقى بين النشأة العلمية والثقافة عند ابن تيمية بالغزالي الفروق طبعًا أوضح من الشمس، ابن تيمية منذ أن ولد في بيئة علمية في غاية النقاوة والصفاء والنضج بين بيئة آبائه وأجداده من أئمة العلم الكبار، خلوص كامل من شوائب البدع، بالعكس الاستقامة على السنة وعلى منهج أهل السنة والجماعة في العقيدة، فشيخ الإسلام ما تلون أبدًا، لا يكاد يعرف أبدًا أنه تلون في شيء ولا أنه ذهب إلى مذهب ثم رجع عنه على هيئة التلون كما قدمنا قبل ذلك من قبل.

الغزالي للأسف الشديد تأثر بضلالات الفلاسفة بنفس موضوع الشك، وفي بعض الفلاسفة أو الفلاسفة عمومًا يزينون الشك للناس، ويوجد بالجهة من هذا الزمان من يردد كالببغاوات هذا الكلام، ويقول الشك أول مراتب اليقين، لا الشك مرض وبلاء، لأن الإنسان الله -سبحانه وتعالى- فطر الإنسان على الإقرار بتوحيد الله عز وجل، والهداية إلى الله -سبحانه وتعالى- لو ترك الإنسان بدون مؤثرات البيئة يجد في قلبه مغروس هذا الشعور الاعتراف بالله عز وجل والإقرار بالله تبارك وتعالى.

الفطرة موجودة فأنت لو أردت أن تشك، المفروض تكون صادق في الشك مش هتخدع نفسك وتدعي إنك بتشك، لازم تكون شاكك، معنى أنك تشك بصدق أنك تهدم ما لديك من الفطرة وما لديك من الإيمان ومن لعلم **... إلى آخره**، وبالتالي تبدأ التفكير من جديد طيب إذا قبضت روحك وأنت على هذا الشك؟

فالعمر ليس عبثًا حتى نخوض في الشك، ثم من أدراك إذا دخلت في الشك إلى أي أودية الهلاك يطيح بك هذا الشك، فالغزالي كان يتبنى مذهب الشك، ولهذا كان العباس محمود العقاد كان مفتونًا جدًا بالغزالي بسبب هذا الضلال، بسبب هذه الفكرة بالذات، وكان بيعتبره الشخصية التي ليس لها نظير في الإسلام، يمكن كان بيضعه بعد عمر بن الخطاب على طول، ده من جهل العقاد أيضًا، فكان معجب بالغزالي بسبب كلامه في موضوع الشك، فهذا باختصار نسميه زخرف القول { يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا و }.

يقول في كتابه ميزان العمل: فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال، هذا كلام واضح البطلان كما هو معلوم، إبراهيم عليه السلام تأمل أم لم يتأمل؟ التأمل شيء والشك شيء آخر، { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ } التفكر، التفكر والتدبر والتعقل هو الذي يهدم مش الشك، ويذهب بعض الباحثين إلى أن الشك صاحب الغزالي حتى سن الأربعين تقريبًا.

الغزالي يبين لنا أنه لا يجوز للمرء أن يفصح عن كل آرائه لجميع الناس، لأنهم يقسم في كتابه القسطاس المستقيم الناس إلى ثلاثة أصناف، الأول عوام، الأول يسميهم أهل السلامة البله، البُله جمع أبله، دول العوام ودول بيسموهم أهل الجنة، الطبقة الأولى عوام وهم أهل السلامة البُله وهم أهل الجنة.

القسم الثاني خواص: وهم أهل الذكاء والبصيرة، ما أعرفش ما قالش ليه من أهل الجنة ولا أهل ايه دول، الخواص وهم أهل الذكاء والبصيرة.

النوع الثالث: يتولد بينهم طائفة هم أهل الجدل والشغب، فيتبعون ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة، وهذا التقسيم هو نفس تقسيم الفلاسفة، وتقسيم ابن سينا بوجه خاص، تقسيم الناس إلى عوام اللي هم خطابيين ومتكلمين يسميهم جداليين، وفلاسفة وهم البرهانيون.

ولذلك فإن الغزالي في ميزان العمل يقول: إن للمذهب ثلاثة مراتب أولًا ما يتعصب له المرء في المبهاة والمناظرات، ويبين أن سبب ذلك أنه مذهب البلد الذي نشأ فيه، ومذهب أهله ومعلميه، وهو إما مذهب الأشعري أو الاعتزال **... إلى آخره**.

ثانيًا: مذهب المسترشدين، أو ما ينطبق على من جاءه مستفيدًا مسترشدًا وهو يختلف بحسب المسترشد فلو كان بليدًا جاف الطبع فلا يقال له إن الله تعالى ليس ذاته في مكان، ده بقى ايه؟ اللي هو حسب المسترشد اللي جاي لك، جاء للمسترشد انتبه للكلام المسترشد بليدًا جاف الطبع فإياك أن تقول له: إن الله ليس بذاته في المكان وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا متصلًا بالعالم ولا منفصلًا عنه، بل ينبغي أنه مقرر عنده أن الله تعالى على العرش، يبقى ده قال لمين؟ البليد الجاف الطبع، الكلام على قد عقله.

المذهب الثالث: ما يعتقد الرجل سرًا بينه وبين الله عز وجل، لا يطلع عليه غير الله تعالى، ولا يذكره إلا مع من هو شريكه في الاطلاع، على من اطلع أو بلغ رتبة يقبل الاطلاع عليه، ولا يفهمه، يبقى إذًا النوع الثالث من الناس أو المذاهب المذهب (31:44) تعتقد مذهب سري عقيدة سرية، لا تجهر بها أمام الناس إلا من يوافقك فيها أو كان على مستوى بحيث يستطيع أن يستوعب ما يقوله.

هذا هو السبب الذي جعل الغزالي يكتب كتبًا للعامة وكتبًا أخرى للخواص، حتى ده باين من أسماء بعض كتبه مثل كتاب ايه؟ إلجام العوام عن علم الكلام، في حاجة أوضح عنوان بس؟ المضمون به على غير أهله، كتاب كده عنوانه كده المضمون به على غير أهله.

وقد اختلف الباحثون في تعيين هذه الكتب الخاصة لكنهم اتفقوا على إنه ألف كتبًا من هذا النوع أودعها أفكارًا لم يتمكن من التصريح بها لعامة الناس، إشفاقًا عليه من الضلال، قال لو أظهرت هذه الأقوال لكل الناس أو لعوام الناس لا يقعون في الضلال.

ولعل هذا يتضح في عناوين كتبه ورسائله مثل الاقتصاد في الاعتقاد، إلجام العوام عن علم الكلام والمضمون به على غير أهله، والمنهج الذي سلكه الغزالي في مهاجمة خصومه بينه لنا بنفسه في كتابه "تهافت الفلاسفة" حيث يقول: ليعلم أن المقصود تنبيه من حسن اعتقاده في الفلاسفة، وظن أن مسالكهم نقية عن التناقد ببيان وجوه تهافتهم، فلذلك أنا لا أدخل في الاعتراض عليهم إلا دخول مطالب منكر، لا دخول مدعٍ مثبت فأبطل عليهم ما اعتقدوه مقطوعًا بإلزامات مختلفة.

فبيقول: أنا أهم حاجة عندي إن أنا عايز أهدم بنيان الفلاسفة ما يهمنيش بقى ايه أتحالف مع مين؟ لا يهمني مع من أتحالف، أستعين مرة بالمعتزلة أستعين مرة بالكرامية أستعين مرة بالواقفة أي مذهب يخدمني هاخد كلامه وأرد به على الفلاسفة، فدي أيضًا من وجوه المفارقة الشديدة بين منهجه وبين منهج شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

يقول: فأبطل عليهم ما اعتقدوه مقطوعًا بإلزامات مختلفة، فألزمهم تارة مذهب المعتزلة وأخرى مذهب الكرامية وطورًا مذهب الواقفية ولا أنتهض ذابً عن مذهب مخصوص، بل أجعل جميع الفرق ألبًا واحدًا عليهم، فإن سائر الفرق ربما خالفونا في التفصيل وهؤلاء يتعرضون لأصول الدين فلنتظاهر عليهم عند الشدائد تذهب الأحقاد، وهذا يعني أن الغزالي في سبيل هدم الفلسفة وبيان تناقضها وتهافتها لا مانع عنده من أن يأخذ أقوال خصومه من المعتزلة والكرامية وغيرهم، وهذا منهج يخالف الحق، ويخالف منهج ابن تيمية مخالفة تامة كما سنرى فيما يأتي إن شاء الله تعالى.

ولعل من الأمور الهامة التي تتصل بالكلام عن ثقافة الغزالي بيان مدى السلبية التي كان عليها الغزالي إزاء الأحداث السياسية الضخمة التي حدثت أثناء حياته، فقد فتح الصليبيون أنطاكية سنة 491 ثم معرة النعمان في الشهر الأخير من تلك السنة، وقتلوا فيها مائة ألف، ثم اجتاحوا البلاد كلها، يقتلون ويدمرون، واقتحموا القدس سنة 495 ووصلت الأخبار بذلك إلى بغداد فقلقلت الخواطر واضطربت الخلافة وكان الغزالي في بغداد في الأغلب فلم يبدي حراكًا ثم إنه عاش أحد عشر عامًا بعد سقوط القدس في أيدي الإفرنج الصليبيين فلم يذكرهم بلسانه فضلًا عن أنه يكون قد حض على قتالهم كما كان ينتظر منهم.

بعض العلماء أو الباحثين أراد أن يدافع عن الغزالي في هذا، فقال: إن هذا الموقف سببه عاملان الأول مرضه وأزمته النفسية، لأن الغزالي مر بأزمة نفسية عنيفة، السبب الثاني: سلوكه طريق التصوف، وقد وقف جميع الصوفية موقفًا هدئًا من الحروب الصليبية التي كانوا يعتقدون أنها كانت عقابًا للمسلمين على معاصيهم، بعكس ابن تيمية طبعًا في هذه الجزئية وجه مقارنة شاسع جدًا، دور شاسع بينه وبين الغزالي رحمه الله تعالى.

فابن تيمية اندمج اندماجًا كاملًا مع أحداث عصره، وقام يكافح التتار بقلمه ولسانه وسيفه، ثم يثني بذكر ثقافة ابن تيمية ومنهجه بالبحث، يقول: أجمع المؤرخون على أن ابن تيمية كان واسع الاضطلاع على العلوم الشرعية والعقلية، على حد سواء، يقول الذهبي عنه: كان يتوقد ذكاء، وسماعاته من الحديث كثيرة، وشيوخه أكثر من مائتي شيخ، ومعرفته بالتفسير إليها المنتهى، وحفظه للحديث ورجاله وصحته وسقمه، فما يلحق فيه، وأما نقله للفقه ولمذاهب الصحابة والتابعين، فضلا عن المذاهب الأربعة فليس له فيه نظير، وأما معرفته باملل والنحل والأصول والكلام فلا أعلم له فيه نظيرًا، وما معرفته بالسير والتاريخ فعجب عجيب، وأما شجاعته وجهاده وإقدامه فأمر يتجاوز الوصف، فإن ذكر التفسير فهو حامل لوائه، وإن عد الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق، وإن حضر الحفاظ نطق وخرسوا، وترك وأبلسوا، واستغنى وأفلسوا، وإن سمي المتكلمون فهو فردهم وإليه مرجعهم، وإن لاح ابن سيناء يقدم الفلاسفة خيلهم وتيسهم، يعني جعلهم كالأفيال والتيوس، وإن لاح ابن سينا يقدم الفلاسفة يقدم قومه، يعني هو يقود الفلاسفة وهم جايين وراه جايين يصولوا على أهل السنة، أو أهل الإسلام، يقول: وإن لاح ابن سينا يقدم الفلاسفة فيلهم وتيسهم وهتك أستارهم وكشف عوارهم.

ولعل من العبارات التي تعبر بوضوح عن ثقافة ابن تيمية، ومدى معرفته بالحديث، قول الذهبي عنه كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فهو ليس بحديث.

طبعًا الذهبي من رجال الاستقراء التام من علوم الحديث ومن أهل الرجال، من أهل الاستقراء التام، فلما الذهبي نفسه يقول هذا على شيخ الإسلام بكلمة لا شك لها وزن لأن العلماء حينما تسمعون ثناءهم على العلماء في الترجمة فهذا هم لا يعرفون المجادلة دول أهل الجرح والتعديل، فلا شك أن كل كلمة بتنطق بحساب ومسئولية مش مجاملة عشان ده شيخه بقى ومعجب بيه فيتعصب له لا، دي بتكون كلمة من ميزان في غاية الدقة.

يقول الذهبي عن شيخ الإسلام: كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فهو ليس بحديث، وهذا يدل على اطلاعه الواسع في السنة، وإلمامه لكافة كتب الحديث، وبين أيدينا اليوم كتاب الرد على المنطقيين لابن تيمية رحمه الله تعالى، وهو كتاب فريد من نوعه وهو يدل دلالة قاطعة على ثقافة ابن تيمية المنطقية العميقة، وأما ثقافة ابن تيمية الفلسفية فهي ما زالت مجهولة إلى حد كبير إذ إن أهم كتبه التي عرض فيها للفلسفة بالنقل والمعارضة لم تنشر بعد أو ضاعت ضمن ما ضاع من كتبه.

طبعًا الكلام ده لابن تيمية من 32 سنة، أما قدر ابن تيمية في الثقافة الفلسفية فده شيء لم يعد مجهولًا الآن، بالعكس ده هو أعظم كتاب ألفه ابن تيمية يرد فيه على الفلاسفة هو كتاب درأ تعارض صحيح النقل مع صريح العقل، أو درأ تعارض العقل والنقل، وده يقول فيه ابن القيم رحمه الله تعالى: لم يؤلف نظيره في العالم، والغريب أن الدكتور هشام سالم رحمه الله تعالى هو الذي حقق الكتاب، هو في وقتها كان جزء واحد فقط ظاهر منه، لكن هو مع ذلك حقق الكتاب، أنا زرته هنا في المعمورة في السبعينيات في أوائل السبعينيات كان لسة في ايديه البروفات بيصححها بتاعت الكتاب درأ تعارض.

المهم ظهر بعد ذلك من كتب شيخ الإسلام ما أبان وكشف عن منزلته في العلوم الفلسفية، يقول: ولعل من أهم هذه الكتب كتاب الصفدية، كما أن كتبه الكبيرة لم تنشر بعد، مثل كتاب نقد تأسيس التقديس، طبعًا ده نشر ولله الحمد، وبقي كتاب درأ تعارض العرض والنقل، فإن الذي نشر منه يعدل ربع الكتاب أو ثلثه على أقل تقدير، طبعًا بعد ذلك الكتاب خرج في حوالي 8 مجلدات، وقد ذكر المترجمون لسيرته أن له في الرد على الفلاسفة أربع مجلدات غير الرسائل والقواعد التي كتبها، وغير الكتب الأخرى في الرد على المنطق منها كتاب في الرد على المنطق كتاب الإشارات لابن سينا.

أما في مجال علم الكلام فإن كثيرًا من كتبه الهامة لم يتم نشرها بعد مثل كتاب نقد تأسيس التقديس، الذي ذكرناه، من 32 سنة الدعوة السلفية قفزت طفرات علمية واسعة جدًا بالذات على يد الدكتور رشاد سالم وفعلا الكتب دي الآن أصبحت متوفرة موجودة.

يقول: والذي يميز ثقافة ابن تيمية أنها ثقافة إسلامية عميقة، بالدرجة الأولى، وأنه يتبع فيها أهل السنة والجماعة إتباعًا دقيقًا، وخاصة منهج الإمام أحمد بن حنبل وكبار علماء الحنابلة، وإن كان يأخذ عن كافة مذاهب العلماء الأربعة، وعن كبار المحدثين مثل البخاري والشافعي والطبري.

طبعًا هنا الشيخ الدكتور رشاد سالم مش بيشرد عن الموضوع، ده هو عايزك وأنت بتقرأ تقارن باستمرار، يعني لما جينا نتكلم عن موقف الغزالي أو موارد الغزالي في الفلسفة وفي علم الكلام وفي الصوفية، وقلنا إن لم نجد له حديثًا واحدًا أو بتعبير أدق لم يعرف له شيخ في الحديث وهو طالب (42:21) ويمكن قالوا في حديث واحد بس وقفنا عليه أن هو رواه من سند الإمام فليس له مشيخة ولا طلب علم الحديث على الإطلاق، فهنا لازم نستصحب بقى الفرق لما يجي يذكر الأسماء الحالية موارد شيخ الإسلام ابن تيمية ومن يرجع ومن أئمته الذين يبني النقول عنهم، فندرك الفرق فهو أخذ في الإحياء عن أبي طالب المكي والحال عن المحاسبي، وأخذ عن ابن سينا وأخذ عن هؤلاء أجمعين.

انظر هنا يقول كان ابن تيمية يأخذ عن كافة العلماء الأربعة، طبعًا بعد الإمام أحمد وعلماء الحنابلة وعن كبار المحدثين مثل البخاري والشافعي والطبري وأبي الشيخ الأصبهاني، واللالاكائي وأبي نصر السجدي، وابن خزيمة، والدارمي، وابن قتيبة وأبي بكر الأقرب، والخلاد وأبي عثمان الصابوني، وأبي سعيد الأنصاري، والبيهقي وابن بطة وابن حزم وابن الجوزير والأشعري والباقلاني وغيرهم.

بل إن ابن تيمية يستفيد من كل المفكرين والنظار، فيما كان فيه التأييد والتدعيم لمذهب أهل السنة والجماعة، وهو يقرر في كتاب الرد على المنطقيين أنه استفاد من كتاب الدقائق للباقلاني وهو أشعري، ومن كتاب ابن النوبختي الشيعي الاثنى عشري في وجده على المنطق، وهنا نلاحظ الفرق بينه وبين الغزالي، فهو يأخذ من كل معين يرد فيه نصرة لمذهب أهل السنة ولما يؤمن بأنه الحق.

يعني ممكن واحد يعترض يقول: طب انت لسة قايلين على الغزالي رحمه الله أنه بيستعين بالأشعرية والمعتزلة ويأخذ من كلامهم ويرد به على الخصوم هؤلاء الفلاسفة، بغض النظر عن الكلام حق ولا باطل، المهم بيهدم في الفلاسفة طب ايه الفرق بين ابن تيمية وبين الغزالي في هذا؟ يقول: الفرق بينه وبين الغزالي أن شيخ الإسلام يأخذ من كل معين بس بيأخذ بعملية ترشيح بيفرز الكلام ويغربله، مش بيأخذ الكلام بغض النظر حتى لو كان باطلًا، لا ده بيأخذ الكلام ويأخذ منه فقط ما ينصر المذهب السلفي.

يأخذ من كل معين يجد فيه نصرة لمذهب أهل السنة ولم يؤمن بأنه الحق، ويطرح منه ما يخالف ذلك، وهو يعترف لكل فئة أو لكل عالم بما فيه من خير، كما يبين ما هو عليه من باطل، وهو في كلامه عن الغزالي رغم هجومه عليه يشيد بكتابه فضائح الباطنية، ومع أنه يقرر أن الغزالي كان متناقضًا إلا أنه يسجل له أنه أقدع في آخر حياته عن الاشتغال بالعلوم الفلسفية والكلامية وانصرف إلى الاشتغال بعلم الحديث.

يقول الإمام ابن تيمية في السبعينية، يقول: وآخر ما اشتغل به النظر في صحيح البخاري ومسلم، ومات وهو مشتغل بذلك رحمه الله تعالى، وعلى الرغم من هجوم ابن تيمية على الباقلاني وخاصة في آرائه عن النبوات والمعجزات إلا أنه يقرر أنه أفضل الأشاعرة ليس فيهم مثله لا قبله ولا بعده، ده في مدح الباقلاني.

طبعًا الكلام ده المفروض يكون شعلة مضيئة لإخواننا أهل الجرح والتجريح، إمامنا العظيم شيخ الإسلام ابن تيمية انظر كيف تعامله ويقف على أرض راسخة ويعرف ماذا يأخذ وماذا يرد ولا يمنعه ذلك من أن ينصف يقول: وعلى الرغم من هجوم ابن تيمية على الباقلاني وخاصة في آرائه عن النبوات والمعجزات إلا أنه يقرر أنه أفضل الأشاعرة ليس فيه مثله لا قبله ولا بعده.

كما يذكر عن ابن رشد أنه أفضل الفلاسفة، وهكذا، فإن منهج ابن تيمية هو أنه يسجل الفضل لذويه مهما اختلف معهم، وأن لا تمنعه مخالفته لخصومه من الاستفادة مما في كلامهم من الحق، وأن لا يكون خلافهم معهم سببًا في أن يجحد فضلهم أو أن يحاربهم برأي لا يؤمن هو نفسه به.

وعلى عكس ما رأيناه من سلبية الغزالي إزاء هجمات الصليبين على المسلمين في عصره، فإن ابن تيمية تصدى للتار بكل ما يملك من قوة معلمية ونفسية بل وبدنية، فقد وقف في دمشق مع نائب الأسلطان الأفرم يحرض المسلمين على الثبات ضد التتار في حين فر من المدينة أكثر العلماء وكبار رجال الدولة، كما أغمض سلطان التتار رازان لسوء معاملته المسلمين مع ما في ذلك من خطر على حياته، ولما رأى اشتداد خطر التتار سافر من سوريا إلى مصر وحرض السلطان الناصر ورجاله على حرب التتار بعبارات شديدة.

دايمًا في التاريخ احنا نقول توحد الجيش المصري مع الجيش الشامي لمقاتلة التتار وهزيمتهم في المعارك المشهورة المعروفة، من السفير اللي تحرك من سوريا إلى مصر ليحرك الخليفة على إنقاذ إخوانه في الشام؟ هو شيخ الإسلام ابن تيمية هو الذي سافر بنفسه وفعل ذلك.

ولما رأى اشتداد خطر التتار سافر من سوريا إلى مصر وحرض السلطان الناصر ورجاله على حرب التتار بعبارات شديدة، ثم اشترك بنفسه في معركة مرج الصف وانطلق بين الجنود ويحركهم، ويؤكد لهم استحقاقهم لنصر الله ما داموا قد أخلصوا في طاعة الله، ثم انطلق يقاتل معهم قتالًا شديدًا ضد التتار.

سنتوقف قليلًا حتى تكون الدراسة دي المقارنة بين ابن تيمية والغزالي كاملة، لا نستطيع الاستغناء أبدًا أيضًا عن كتاب قيم كتاب أبو حامد الغزالي والتصوف للشيخ عبد الرحمن برشقية، وهو دراسة حول عدة كتب للغزالي وبالذات كتاب إحياء علوم الدين، فسنتوقف قليلًا في بعض الأحيان لنجمع بين الكتابين.

هو هنا يذكر الشيخ الدمشقية حفظه الله تعالى: إن لا بد لأي شخص يريد أن يتكلم عن التصوف لا بد أن يعرج على شخصية الغزالي وأثر الغزالي في التصوف والمتصوفة، لأن الغزالي محطة من محطات الفكر الصوفي، لا بد من الوقوف عندها لكل دراسة تتناول التصوف.

خاصة أن الغزالي أرسى قواعد الصتوف وعلومه في كتابه المعروف إحياء علوم الدين، وإن كان قد تكلم عن التصوف في كثير من كتبه الأخرى، فالإحياء مشتمل على آداب التصوف جميعها، وفيه توحيد لما تشتت وتنافر من علوم المتصوف والكتب المؤلفة حوله، فقد رتب ما بددوه ما بدده الآخرون من علماء الصوفية ونظم ما فرقوه وحل ما عقدوه وكشف ما أجملوه وأوجد ما طولوه وضبط ما قرروه، وحذف ما كرروه، وأثبت ما حرروه، وحقق أمورًا غامضة اعتاصت لم يتعرضوا لها في كتبهم.

فالكتاب الأساسي الذي يتم مدارسته الآن في هذا الكتاب هو "إحياء علوم الدين" وإن كان السلفيون أحيانًا أو غالبًا ما يتحرجون من هذا اللقب فيختصرونه بعبارة "الإحياء" لكن هو لا يستحق أن يوصف بأنه إحياء لعلوم الدين، إنما يقولون الإحياء هروبًا من هذا الوصف، بل بعض العلماء سموه إماتة علوم الدين.

وهو دستور التصوف الذي يعتمد عليه المتصوفة إلى اليوم.

بيحكي قصة ايه سبب تأليف هذه الدراسة؟ يقول: أن أحد الناس عاتبه في أحد الأيام، وقال له: أنت تقتني كتبًا كثيرة جدًا لا ضرورة لها، بينما لم تحدث نفسك مرة واحدة، بأن تقتني كتاب إحياء علوم الدين، واستنكر عليه ذلك، وقال: شعرت من طريقته أنني مذنب حقًا، فيعني أنه يقول اشتريت هذا الكتاب وأنا تتردد في أذني عبارة بعضهم من لم يكن عنده الإحياء ما فيه حياء، وقول بعضهم ضع اللحية واقتني الإحياء، سيبك من مظاهر اللحية واقتني كتاب الإحياء، إلى غير ذلك، يقول: ده الفضول عندي لأدرس هذا الكتاب.

يقول: وبما أن الغزالي حجة الإسلام كما يقال، فقد أصبح سلوكه في التصوف حجة عند المتصوفة، فلم يعد عندهم أدنى شك أن المتوصفة هم الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة، ما دام أن حجة الله على خلقه قد سلك سبيل التصوف، وسماه المنقذات من الضلال، وما دام قد اختراه على ما سواه من المذاهب، فإن الحجة فيم اختاره الحجة.

دي كلمة مشهورة عند الصوفية، علشان يدافعوا عن الغزالي والإحياء، يقول لك الحجة فيما اختاره الحجة، اللي هو الغزالي، فالغزالي بما أنه علم وهو حجة في الإسلام، فلا بد أن يكون الصواب فيما اختاره وهو منهج الصوفية، وهذا مشعر باعتقاد الصوفية العصمة في الغزالي، وامتناع الخطأ والزلل، فإن كان الغزالي حجة عندهم بهذا المعنى، هل الغزالي أحد من الناس حجة وإنما كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- هما حجة الإسلام.

يقول: ومن المعلوم أن حياة الغزالي العلمية مرت على مراحل متعددة، فقد خاض بالفلسفة ثم رجع عنها ورد عليها، وخاض بعد ذلك في الكلام وأتقن أصوله ومقدماته ثم رجع عنه بعد أن ظهر فساده، ومناقضاته ومجادلاته أهله.

وقد كان متكلمًا في الفترة التي رد فيها على الفلاسفة، ولقب حينها بلقب حجة الإسلام بعد أن أفحمهم وفند آراءهم، هل كان تبنيه لعلم الكلام آنذاك حجة، علمًا بأنه تراجع عنه بعد ذلك، وبعد إعراضه عن الكلام وذمه إياه، سلك مسلك الباطنية وأخذ بعلومهم ورجع عن ذلك، وأظهر بطلان عقائد الباطنية وتلاعبهم بالنصوص والأحكام.

فتبين لهذا أن الاختيار الذي كان يختاره الغزالي من هذه المذاهب لم يكن اختيارًا سليمًا، وبالتالي لا يكون هذا الاختيار حجة على الإطلاق، والذي يؤيد ذلك أنه رجع عن هذا الاختيار بعد ذلك، وهذا مصير من يربط مصيره بمصير بشر سوى الرسول عليه الصلاة والسلام، كما قال ابن مسعود: من كان منكم مؤتمًا فليأتم بمن قد مات، يعني مات على الاستقامة وعلى السنة، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة.

يبدأ بالتعريف بالغزالي يقول: هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، يعني ثلاث محمد والرابع أحمد، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي المعروف بالغزالي، ولد بطوس سنة 450 من الهجرة، وكان والده يغزل الصوف، ويبيعه في دكانه في طوس، فلما حضرته الوفاة أوصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له متصوف، من أهل الخير، ,قال له: إن لي تأسفًا عظيمًا على تعلم الخطأ، لأنه ما تعلم القراءة والكتابة ده أبوه، قال لصديقه وهو يوصي له بالولدين يعني.

إن لي تأسفًا عظيمًا لعدم تعلم الخطأ وأشتهي إدراك ما فاتني في ولدي هذين فعلمهما ولا عليك أن تنفذ في ذلك جميع ما أخلفه لهما، يعني كل ما أتركه لك من مالك انفقه على هذين الولدين.

فلما مات أبوهما أقبل صديقه على تعليمهما، إلى أن أفنى ذلك النذر اليسير الذي كان خلفه لهما أبودهما، فتعذر عليه القيام بقوتهما، لم يجد الرجل ما ينفقه عليهما، فقال لها: اعلما أني قد أنفقت عليكما ما كان لكما، وأنا رجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لي فآويكما به، فأصلح ما أرى لكما، أن تلجأ إلى مدرسة، فإنكما من طلبة العلم فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما.

يبقى إذًا الهدف الأساسي كان ايه؟ إنه مش قادر يصرف عليهم ويأتيهم بالقوت، فقال لهم: المدرسة هتصرف عليكم وتطعمكما، إذا كانت القضية في البداية بهذه الصورة، ففعلا ذلك، وكان هو السبب في سعادتهما وعلو درجتهما.

وكان الغزالي يحكي هذا ويقول: طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله، لكن البداية كانت لايه؟ عشان القوت فقط، ثم العلم نفسه عالج هذه النية فصار بعد ذلك لله، طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله.

كانت الحالة الاقتصادية هي التي دفعت بالغزالي إلى الدخول إلى أحد المدارس الدينية ليتعلم الدين فيها ظاهرًا، وليضمن قوته باطنًا، حيث إنه لم يكن له اختيار في ذلك لكن هذا الفقر كان عامل خير لتكوين شخصية الغزالي الفقهية التي تطورت ونمت بشكل آثار حوله إعجاب الآخرين.

ولذلك وصفه ابن كثير أنه كان من أذكياء العالم، في كل ما يتكلم فيه، وقد ساد في شبيبته، حتى إنه درس بالنظامية ببغداد وكان يحضر درسه هذا بعض أكابرة العلماء، وممن كان يحضر عنده أبو الخطاب وابن عقيل فتعجبوا من فصاحته واطلاعه، وقد حكى عنه ابن كثير أيضًا، بأن النسخ كان من مصادر قوته، أن يستنسخ الكتب يعني، ويعيش من وراء ذلك.

قال السبكي: وفي عام 465 بدأ الغزالي يدرس الفقه على أحد الراذكري بطوس، ولما تمكن من العلم سافر إلى جرجان يطلب المزيد من العلم على يد الشيخ أبي نصر الإسماعيلي، وعلق عنه التعليقة، ثم قدم نيسابور ولازم هناك إمام الحرمين الجويني، وجد واجتهد حتى برع في العلوم، ووقف على الخلاف والجدل والأصلين والمنطق، وقرأ الفلسفة وأحكم ذلك كله، وفهم كلام أرباب هذه العلوم وتصدى للرد عليهم وإبطال دعاويهم.

وقد أظهر الجويني عناية خاصة به، لما ظهر له فيه من نوادر النبوغ السريع حتى كان يصفه بالبحر المودق، وقد لازمه الغزالي مدة انتهت بوفاته سنة 498، ويبدو أن أستاذة الجويني بدأ يقتصد في الثناء على الغزالي، لأن هذا التلميذ النابغ يمضي نحو تألقه وسطوعه بخطوات سريعة.

غطى على أستاذه حين كتب المنخول، فضاق صدر الأستاذ ولم يستطع كتم ذلك، حتى قال له: دفنتني وأنا حي، هلا صبرت حتى أموت، لأن الكتاب لما ألفه طبعًا سطع نجم الغزالي وبرز بصورة واضحة.

يقول ابن عساكر نقلا عن ابن الغافر، وهو أحد تلامذة الغزالي، يقول: ثم قدم نيسابور مختلفًا إلى درس إمام الحرمين في طائفة من الشبان من طوس وجد واجتهد حتى تخرج في مدة قريبة، وبز الأقران وحمل القرآن، وصار أنور أهل زمانه، وأوحد أقرانه في أيام إمام الحرمين، وكان الطلبة يستفيدون منه ويدرس لهم ويرشدهم ويجتهد في نفسه، وبلغ الأمر به إلى أن أخذ في التصنيف وكان الإمام مع علو درجته وسمو عبارته وسرعة جرجه في النطق والكلام لا يصفي نظره إلى الغزالي سرًا، بإبائه عليه في سرعة العبارة وقوة الطبع، ولا يطيب له تصديه للتصوير.

وإن كان متخرجًا به منتسبًا إليه كما لا يخفى من طبع البشر، ولكنه يظهر التبجح به، ولا اعتداد بكلامه ظاهرًا، خلاف ما يضمره، ثم بقي كذلك إلى انقضاء أيام الإمام، ثم خرج من نيسابور وصار إلى المعسكر بالعراق فاتصل هناك بالوزير نظام الملك، حيث عهد إليه هذا الأخير مهمة التدريس بمدرسته النظامية ببغداد، فقبل ذلك، وكان ذلك في جمادى الأولى عام 484 ولم يكن آنذاك تجاوز الرابعة والثلاثين من عمره.

وقد احتل من نظام الملك هناك محل القبول وظهر اسمه وبرزت مناظراته للفحول ومناقراته للكبار، وارتفق بذلك أكمل الارتفاق حتى أدت به الحال إلى أن صمم على ترك المعسكر والتدريس بنظامية بغداد.

ووصل أبو حامد إلى بغداد ولاقى تشجيعًا له على تحقيق دعوته، ومواصلة تدريسه بنظامية بغداد وصارت له مكانة عالية، وشهرة واسعة، حيث كان مدرسًا لثلاثمائة من الطلاب في الفقه والأصول وغيره، لكن ذلك لم يعمر طويلًا فقد أصابه مرض اضطره إلى مفارقة بغداد فرحل إلى الحجاز حاجًا ثم أتى الشام وتركها ذاهب إلى القدس نحو سنتين، وقد قيل بأن خروجه من بغداد كان بسبب خطر الباطنية الذين تم على أيديهم اغتيال نظام الملك سنة 485.

وبهذا قوية شكيمتهم، واستفحل أمرهم ولقد كان وقع نبأ اغتيال نظام الملك عظيمًا في نفس الغزالي، وتأثر بسبب ذلك تأثرًا بليغًا، وبلغ هذا التأثر مبلغه حين توفي المقتدي، سنة 487 بطريقة غامضة، ولعلها مؤامرة باطنية أيضًا، ومن ثم جاء المستظهر بالله، فطلب من الغزالي محاربة عقيدة الباطنية وفضح آرائهم ومذهبهم، ففعل الغزالي ذلك فصنف ضدهم العديد من المصنفات، أشهرها كتاب المستظهري وفضائح الباطنية، وبذلك أصبح الغزالي مهددًا بالخطر فالباطنية يتهددونه ويتحاينون الفرصة المواتية للتخلص منه، فخرج من بغداد سنة 488، وقد ترك آخاه أحمد بالتدريس في نظامية بغداد.

وفي بغداد أيضًا انصرف الغزالي إلى دراسة الفلسفة دراسة عميقة، فطالع كتب الفارابي وابن سينا وألف على أثر ذلك كتاب مقاصد الفلاسفة، وقد أشارت جميع الدلائل إلى أن الغزالي لم يؤلف هذا الكتاب عن رغبة مجردة في العلم بل سعيًا لطمأنة شكوكه الفكرية وتهدئة اضطرابه الباطني، والدليل ذلك على هذا أيضًا أنه ألف بعد ذلك كتابه المشهور تهافت الفلاسفة لإبداء شكوكه في قيمة العلم وبراهينه المنطقية.

يروي الغزالي يحكي فيما يمكن أن نسميه مذكراته لماذا فرح الغزالي.

يقول: ثم لاحظت أحوالي ده بعد ما كان في أوج الشهرة و المجد في بغداد، يقول: ثم لاحظت أحوالي فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أحدقت بي من كل الجوانب، ولاحظت عملي وأحسنا التدريس والتعليم، فإذا أنا مقبل على علوم غير مهمة، ولا نافعة في طريق الآخرة، فلم أزل أتردد بين تجاذب الدنيا ودواعي الآخرة، قريبًا من تسعة أشهر أولها رجب سنة 488، ثم لما أحسست بعجزي وسقطت بالكلية اختياري، أظهرت عزم الخروج إلى مكة، وأنا أريد في نفسي سفر الشام، حذرًا أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمي في المقام بالشام، فتوقفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزمي أن لا أعاودها أبدًا، ففارقت بغداد.

يقول: ثم تفكرت من نيتي في التدريس في بغداد يعني، فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت، فتيقنت على أني على شفا جرف هار، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام، ومنادي الإمام ينادي الرحيل الرحيل، فلم يبقى من العمر إلا القليل وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخيير.

هكذا خرج الغزالي إلى مكة، فالمدينة فدمشق فالقدس فدمشق فالأسكندرية ثم عاد إلى بغداد، قال القاضي أبو بكر بن العربي: رأيت الغزالي في البرية، يعني في صحراء دمشق، وبيده عكازًا، وعليه مرقعة وعلى عاتقه ركوة، وقد كنت رأيته ببغداد يحضر درسه 400 عمامة، من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم، فدنوت منه، ده القاضي أبي بكر العربي اقترب من شيخه لما رآه بهذه الهيئة في الصحراء، فدنوت منه وسلمت عليه وقلت له: يا إمام أليس تدريس العلم في بغداد خيرًا من هذا؟ فنظر إلي شذرًا وقال: لما طلع بدر السعادة في سماء الإرادة وجنحت شمس الوصول في مغارب الأصول تركت هوى ليلى وسعدى بمنزل، وعدت إلى تصحيح أول منزل، ونادت بي الأشواق مهلًا فهذه منازل من تهوى رويدك فانزل، فغزلت لهم غزلًا دقيقًا فلم أجد لغزلي نساجًا فكسرت مغزلي.

بعد 10 أعوام من السفر تراه الغزالي بين الحجاز ودمشق والقدس والإسكندرية عاد أخيرًا إلى نيسابور وكان ذلك سنة 498 بأمر من الوزير فخر الملك علي بن نظام الملك، وألح عليه في هذا إلحاحًا شديدًا، فلبى الغزالي طلبه وتولى التدريس بالنظامية سنة 499 لكنها كانت فترة قصيرة لم تدم طويلًا، فسرعان ما قضت أيدي الباطنيين على فخر الملك حينئذ خرج الغزالي سنة 503 مسرعًا إلى طوس ثانيًا.

توفي الغزالي يوم الاثنين 14 من شهر جمادى الآخرة سنة 505 ودفن بظاهر طابران وهي قصر باطاطوس رحمه الله تعالى، ولم يعقب إلا البنات، وكان له من الأثداب إرثًا وكسبًا ما يقوم بكفايته ونفقة أهله وأولاده.

ثم ذكر الترتيب الزمان لمؤلفات الإمام الغزالي رحمه الله تعالى، ذكر حوالي ما يقرب من مائة كتاب من كتب الإمام الغزالي رحمه الله تعالى، ثم يتحدث بعد ذلك عن أزمة الغزالي الروحية فيقول:

إن الغزالي عاصر زمنًا كثرت فيه الآراء والفرق، وكان أبرزها آنذاك علم الكلام والفلسفة والباطنية والتصوف، وعكف الغزالي على دراسة كل واحدة منها، فقد تلقى الأصول وعلم الكلام على الجويني، وتفرغ لدراسة الفلسفة دراسة وافية، وأكب على كتب ابن سينا كالشفاء والنجاة والإشارات، ورسائل أبي حيان التوحيدي، ورسائل إخوان الصفا، ومؤلفات الفارابي، وتهذيب الأخلاق لابنفسكويه، وأكثر المصادر التي أخذ منها هي النجاة لابن سينا، وتهذيب الأخلاق لمسكويه.

وفي التصوف أخذ عن كتاب قوت القلوب لأبي طالب المكي والقشيري صاحب الرسالة المشهورة، والمحاسبي والجني، ولذا لم يدع مذهبًا من المذاهب إلا وتوغل في درساته.

يقول الغزالي: ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ عشرين إلى الآن وقد آناف السن على الخمسين أقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوذ غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحظور، وأتوغل في كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة وأتفحص عن عقيدة كل فرقة وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن وبمتدع.

لا أغادر باطنيًا إلا وأحب أن أطلع على بطانته، ولا ظاهريًا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته، ولا فلسفيًا إلا وأقصد الوقوف على كُنه فلسفته، ولا متكلمًا إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه، ولا صوفيًا إلا وأحرص على الحصول على سر صفوته.

لكن هذه العلوم على اختلافها وتكونها لم تبني عنده أساس الاعتقاد الصحيح، لكن بالعكس هي لما امتزجت بعقله أحدثت عنده شكًا في كل العلوم التي تلقاها، ولم يكن أي علم من هذه العلوم، معينًا له على الخروج من هذا المرض الذي أصابه وتفاقم عنده فيما بعض.

يقول: فأعضل هذا الداء ودام قريبًا من شهرين، أنا فيهما على مذهب الصفصفة بحكم الحال لا بحال النطق والمقال، حتى شفا الله من ذلك المرض وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضرورات العقلية مقبولة، موثوقًا بها أمن ويقين.

حاول بعضهم أن يفسر هذا المرض على أنه نوع من الانهيار في القوى العقلية للغزالي، واختلفوا في توصيف هذه الحالة التي انتابته رحمه الله تعالى، ساعد على هذا الشك وحالة القلق التي انتابت الغزالي، وشعوره الدائم بملاحقة الباطنية له.

ولم شفي من هذا المرض خرج منه وقد شك في كل العلوم، فأراد أن يسلك طريقه بجدية ليبحث عن الحقائق واختيار المذهب الحق من المذاهب التي سادت في عصره، ليحدد موقفه في كل واحدة منها، وقد كان له مع كل واحد من هذه المذاهب التجارب، وأخذت كل واحدة منها فترة من حياته.

قبل أن نستمر فنحن نلاحظ في القرآن الكريم دائمًا النور تأتي مفردة والظلمات تأتي جمعًا، فالإنسان لا بد أن يوفر طاقته على أن يتعلم الحق أو النور، فإذا تعلم الحق يصير عنده مناعة من الباطل أو الظلمات، دائمًا في القرآن النور مفرد والظلمات جمع، { اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } هذا كثير في القرآن الكريم، ما فيش أنوار لكن تأتي النور مفردة، لأن الحق واحد لا يتعدد والباطل هو الذي يتعدد.

فتزيين الشيطان لبعض الناس وأنه لا بد أن يقرأ في كل شيء ويتعلم من كل شيء من الباطل والضلال، طبعًا هذا الشخص لو أتي عمر نوح لا يستطيع أن يستوعب كل ما في العالم من ضلالات حتى يدرسها ويتعلمها، وإنما يتعلم الحق يعطيه مناعة ضد الباطل.

وهذه تجربة عملية، الغزالي للأسف الشديد خاض في هذه العلوم وتأثر في غيرها شاء أم أبى كما سنبين، ثم استدرك أخيرًا أن طريق الحق هو لم يلتفت إليه منذ البدايات، كما يقول بعض السلف من نعمة الله على الشاب إذا نتج، الشاب إذا تاب ولزم الاستقامة أن يواخي صاحب سنة يحمله عليه، أنك تصادف شخص صاحب سنة يحملك ويعينك على اتباع السنة.

كذلك قالوا: من نعمة الله على الأعجمي إذا أسلم والشاب إذا تاب أن يقيد الله له رجلًا من أهل السنة، لأن الإنسان يتعصب لأول من يعلمه، أول شيخ يعلمه وأول كتاب يقرؤه يبقى صعب بعد كده إزالته.

فمن وفق لعلماء أهل السنة منذ البداية فهذه من سعادته من علامات السعادة، أن الله يريد به الخير ولا يريد به أن يضيع عمره سدى في وديان الباطل والضلال.

ما أن شفى الله الغزالي من مرض السفسطة الذي أصابه والذي حمله على الشك في كل العلوم، والحسيات والضروريات، حتى صار يغادر إلى الحث على الشك، دي أول للأسف الشديد، في المرحلة الجديدة لما خلص من هذا المرض، بادئ يقول لا أنا أشك في كل شيء، زاعمًا أن الشك هو الموصل إلى اليقين.

يقول في آخر كتابه ميزان العمل: خذ ما تراه ودع شيئًا سمعت به في طالع الشمس ما يغنيك عن زحل، يقول: ولو لم يكن في مجال هذه الكلمات إلا ما يشكك في اعتقادك الموروث لتنتدب للطلب فناهيك فيه نفعًا إذا الشكوك هي الموصلة للحق.

لا اللي يوصل للحق الفطرة السليمة العقل السليم والوحي المعصوم، والاقتداء بأهل العلم هو ده اللي يوصل للحق، لكن إن الشك يوصلك إلى الحق؟! من قال هذا، { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا } ده بالعكس إذا دخل شك ينهار الإيمان، ولذلك من أحد شروط كلمة الإخلاص اليقين وعكسه المنافي للشك، هو الريب يعني.

يقول الغزالي: فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال، هذا كلام ظلمات بعضه فوق بعض، من لم يشك لم ينظر، لا ممكن تاني من لم يشك لأنه غير محتاج إلى الشك، بالفطرة السليمة والعقل السليم والاستغناء بعلم الوحيين الشريفين، ونحو ذلك من مصادر الحق.

يقول: لولا أن الغزالي لم يبين لنا مصير المرء إذا بقي في شكه ولم يهتد إلى اليقين، ولا يفوتنا إلى أن نلفت النظر إلى أن الغزالي نبه في عدة مواطن من كتبه، إلى أنه يجب على المعلم أن يتجنب كل ما يثير الشك في نفوس الضعفاء.

وطبعًا الشك لا حد له لا حدود له، فدي أيضًا من المظاهر المعروفة لدينا، التناقض أحيانًا يبني شيئًا، في موضع آخر يهدم نفس الشيء، وضع شيء يكفر به في موضع وفي موضع آخر نجده يتبناه، هذا من التناقض الموجود عند الغزالي رحمه الله، والتناقض الذي لا نرى تكذيبًا له في أي أثر في علم شيخ الإسلام ابن تيمية على كثرة ما ألف وعلى كثرة ما أفتى لا نرى له تناقضًا رحمه الله تعالى.

وبالطبع فإن الغزالي لا يدعو النصارى أو اليهود أو المجوس إلى التشكك في اعتقاداتهم، ودي برده المصيبة الكبيرة، يعني هو الغزالي بيدعو مين إلى الشك؟ المسلمين فقط، ولكن دعوته غير موجهة إلى هؤلاء، فنقول وبالطبع إن الغزالي لا يدعو النصارى أو اليهود أو المجوس إلى التشكك في اعتقاداتهم، ولو فعل لكان حسنًا منه أن يشكك أهل الباطل في أديانهم الباطلة، لكنه يدعو إلى الشك ويحث عليه المسلمين مشككًا إياهم من اعتقادهم الموروث، وهو الإسلام، الذي أول ما يولد المولود عليه سواء كان بعد ذلك كافرًا أو مشرك، كل مولود يولد على الفطرة، الاستعداد للإسلام، أبواه البيئة بقى هي اللي بتغيره، المفروض نشكك اللي يكون يهودي أو نصراني أو مجوسي، لكن المسلم ندعوه إلى الشك وهو مولود على الفطرة، وقد عفاه الله من هذا البلاء؟!

يقول: أما عن الغزالي وشكه، يقول: فهو ليس بالأمر المحدود بل العجب كل العجب أن يلم رجل بكل علوم الفقه وأصوله، فيعتلي كرسي التدريس ويجتمع من حوله رجال العلم، وطلابه، ويستفتى في المشكلات والمعضلات ثم لا يفتأ بعد ذلك يشك في كل العلوم التي حصلها.

وهذا النوع من الشك لا يحصل لأهل اليقين وإنما هو سبيل المرتابين المترددين المضطربين، ومن سلك الطريق الشرعي النبوي، لم يحتج في إثباتها إلى أن يشك في إيمانه الذي كان عليه قبل البلوغ، ثم يحدث نظرًا، يعلم به وجود الصانع ولم يحتج إلى أن يبقى شاكًا مرتابًا في كل شيء، وإنما كان مثل هذا يعرض لمثل الجهم ابن صفوان وأمثاله، فإنهم ذكروا أنه بقي 40 يومًا لا يصلي حتى يثبت أن له رب يعبده.

هذه الحالة كثيرًا ما تعرض للجهمية، ده كلام شيخ الإسلام، الكلام الأخير هذا، هذه حالة كثيرًا ما تعرض للجهمية وأهل الكلام الذين ذمهم السلف والأئمة، يقول ابن تيمية: وأما المؤمن المحض، يعني عملية الشك دي والتردد بهذه الطريقة تحدث لأئمة الضلال زي الجهم بن بصفوان وأمثاله، أما المؤمن المحض، فيعرض له الوسواس وتعرض له الشكوك والشبهات، وهو يدفعها عن قلبه، فإن هذا لا بد منه، يعني ما يكاد أحد يسلم من خواطر عارضة وساوس عارضة.

كما ثبت في الصحيح أن الصحابة **رضي الله تعالى عنه**م قالوا: يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما أن يحترق حتى يصير حممة، أو يخر من السماء إلى الأرض، أحب إليه أن يتكلم به، فقال: «لقد وجدتموه؟» قالوا: نعم، قال: «ذلك صريح الإيمان».

ذلك صريح الإيمان، لأنه يدل على أنك تنفر من هذا الكلام وتكرهه، وفي السنة من وجه آخر أنهم قالوا: إن أحدنا ليجد في نفسه ما يتعاظم أن يتكلم به، فقال: «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة».

قال غير واحد من العلماء: معناه أن ما تجدونه في قلوبكم من كراهة الوساوس والنفرة عنه، وبغضه ودفعه هو صريح الإيمان، فهذا من الزبد، يعني مثل هذه الوساوس مثل الزبد، هذا من الزبد الذي قال الله تعالى فيه، ده كلام ابن تيمية برده.

وهذا من الزبد الذي قال الله تعالى فيه: { فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ }، ولقد تلفق هذا الشك الذي روج إليه الغزالي ديكارت وغيره من الفلاسفة المحدثين.

ودي المفتون بثقافة الغربيين، بيفخروا بقى ده احنا الشك ده مش ديكارت اللي عمله ده احنا اللي عملناه الغزالي العالم المسلم هو الذي اخترع الشك وطالب بالشك، فبيعتبروها مفخرة ومحمدة نتنافس فيها مع ديكارت وغيره من الملاحدة.

فبيقول: لا ده احنا اللي عملناها، هذه المدرسة مدرسة الشك، وهم طبعًا في الغرب سرقوا كثيرًا من الأشياء من المسلمين، وبما فيه بعض البلاغات عند بعض المسلمين، فتلقف هذا الشك الذي روج له الغزالي ديكارت وغيره من الفلاسفة المحدثين، وصاغوها في قالب فلسفي إلحادي مغبن إلى الشك بالنفس وإثباتها بعد ذلك بالمؤثرات المادية لها.

مش هو ده ديكارت اللي قال أشك هل أنا موجود أو لا؟ ثم الشك في الله وسائل الغيبيات بعد ادعاء عدم توافر هذه المؤكدات المادية، لذلك ومن ثم إنكار البحت، أما إيمان ديكارت الذي زعمه فإنه إيمان نظري لا وجود له نظريًا، وهذا المذهب الديكارتي هو من جملة المذاهب الإلحادية التي ساعدت على نشر الإلحاد في أوروبا.

وقد اعتمد في إقامة مذهبه على كتاب المنقذ من الضلال، وبالتحديد على فترة الشك الذي أبرزها الغزالي فيها، ده مش ممكن من الضلال، ده موقع في الضلال.

يعني عالم مسلم يقدم ايه لديكارت وأمثاله؟ يقدم لهم القرآن والسنة والتوحيد، مش يقدم لهم الإلحاد للأسف.

وللكاتب الفرنسي شارم شومان، مقال أثبت فيه أن ديكارت أفقد كثيرًا من المبادئ التي بنى عليها مذهبه من الإمام الغزالي، وقد قابل هذا الكاتب بين ما جاء في المنقذ من الضلال للغزالي، وما في رسالة الأسلوب والتأهلات لديكارت وتكاد العبارات تكون واحدة، ومن العجب أن شاكًا في حقائق الأمور كالغزالي يصدر مؤلفات إيجابية لبيان حقائق الأمور، فيتحدى الفلاسفة ويتخطى حدودهم بجرأة وثبات لم تعهد في أحد من قبل، ويعطي دروسًا يجتمع حولها ما يزيد عن 400 ما بين أئمة وطلبة علم فيعجبوا بحديثه، ويأخذوا عنه حقائق العلوم ودقائقها بإيجابية نادرة.

وهم لا يعلمون أن وراء هذه الإيجابية ووراء هذا النبوغ، تكمن سلبيات وشكوك تعتري نفسه وتشوش فكره ملقية إياه في بحر من الآراء المتضاربة والأفكار المتداخلة، وإنه لمن الغريب أن يصدر عن الشاك تأليف وتدريس سلبيان.

أعني بالتأليف والتدريس السلبيين النقد والتفنيد، لأن الشاك كباحث لم تسلم لديه أدلة الدعاوى، إذ أقامت لديه حولها شبه، فهو إذا سطر منها تلك الشبه في كتب أو ألقاها في دروس كان مستجيبًا لداعي شكه وكان منطقيًا مع نفسه.

طبعًا ردوده على الفلاسفة والمناطقة والمتكلمين كان يقتضي أنه لا بد أن ينغمس بحار ضلالهم ويعش مع كتبهم وثقافاتهم، المشكلة أن الغزالي لم يكن محصن لم يكن عنده مناعة من العلوم الشرعية وعقيدة أهل السنة وأهل الحديث، فقيل يعني هذه أفضل له، هو لم يتحصن بعد، ولم يعتمد على مذهب معين يقف عنده، حتى أنه لم يرى المسلمين أنفسهم مقلدين، لم يلتزموا إسلامهم من خلال البحث والتنقيب وإنما يتلقوه عن آبائهم.

فكان لابد أن تحدث هذه الأفكار المتضاربة عنده تشويشًا وتمتزج عنده المعلومات التي دخلت فيه واستقرت من غير اعتناق منه لأي منه، وهذا ما سبب عنده كثرة التناقض وتضارب الأدلة في النصوص المختلفة من كتبه، بل ربما في الكتاب الواحد، بل ربما في الفقرة الواحدة.

إن الغزالي عاب على علم الكلام وهو مؤلف فيه، وعاب على الفلسفة وهو مؤلف فيها، والغزالي شك وأمعن في شكه، وقد كان قبل الشك يستعمل موازين للحقيقة لم يخضع عنها بعد الشك، ومع ذلك ظل يعترف بمؤلفاته القديمة ويحيل عليها عند المناسبة.

ولو كان في الشك ما يستحق الثناء لكان علينا أن نمتدح جهمًا لوقوعه في الشك وتركه الصلاة أربعين يومًا، ويظهر أن مرحلة ما بعد الشك تخرج الشاك في حالة من المرض لا يكاد يحس بها في بادئ الأمر، فكما أن جهم بن صفوان خرج من الشك بمبادئ التعطيل والنفي لصفات الله، فإننا نرى كذلك أبا حامد قد خرج من مرحلة الشك إلى التصوف وعجائبه، كما سيمر معنا وإلى نظرية الكشف التي تنازع النبوة وتجعلها مكتسبة لزيد وعمرو لا للأنبياء فقط.

أخيرًا:

نذكر هنا نقطة البداية الخطأ عند مفترق الطرق ده شيء مهم جدًا، الإنسان عند مفترق الطرق أن يحسن اختيار الطريق الذي يؤدي إلى الهدف، يعني مسافر القاهرة ماتاخدش بقى طريق مرسى مطروح أو طريق رشيد، فعند تقاطع الطرق لازم تعرف أنت رايح فين من البداية، مش بعد ما تقطع الرحلة تكتشف إن الطريق كان خطأ من البداية، لذا نقطة الافتراق الطريق دي مهمة جدًا.

فالغزالي بيعتبر نقطة مفترق الطرق بعد ما شفي من هذا المرض الله أعلم كان نفسيًا أو ايه، يقول: ولما شفاني الله تعالى من هذا المرض بفضله وسعة جوده انحصرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق، المتكلمون، الباطنية، الفلاسفة، الصوفية.

بيعمل هو ايه بقى دلوقت؟ حاجة في المنطق اسمها ايه؟ السبر والتفصيل، لكن هل هو أجاد بهذا السبر، هل هو طبق حتى قواعد المنطق في هذا؟ لماذا؟ صحيح يعني هو يقول إن الحق ينحصر في أربع فرق أكيد الحق هيكون إما عند المتكلمين أو الباطنية أو الفلاسفة أو الصوفية، والمهم إن هو نسى أهل الحق الحقيقيين، وهم أهل السنة والجماعة، الأمة الوسط، شوف مصيبة عدم الاقتداء بهدي السلف؟ ونعمة أن يهدي الله الإنسان عند مفترق الطرق إلى طريق الحق طريق أهل السنة والجماعة.

فالغزالي للأسف الشديد لم يسحن هذا السبر ولا هذا التقسيم، بدليل أنه نسى أن يذكر أهل الحق بحق، وهم أهل السنة والجماعة، يقول: ولما شفاني الله تعالى من هذا المرض بفضله وسعة جوده، انحصرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق:

1. المتكلمون، وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر.
2. الباطنية، وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم.
3. الفلاسفة، وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان.
4. الصوفية، وهم يدعون أنهم خواص الحضرة، وأهل المشاهدة والمكاشفة.

ويضيف قائلًا: فقلت في نفسي الحق لا يعدو عن هذه الأصناف الأربعة فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق، فإن شذ الحق عنهم، فلا يبقى في درك الحق مطمع، إذ لا مطمع في الرجوع إلى التقلد بعد مفارقته.

التقليد يعني ايه هي؟ يمكن هو ده التقليد بتاع أهل السنة والجماعة، وده اللي هو في نهاية الرحلة الطويلة رجع إليه في الآخر.

فنريد أن نستحضر نعمة الله -سبحانه وتعالى-، بين أن الله هدانا لهذا المنهج وعافانا من بلاء الشك والتلون مع الفرق الضالة.

يقول: فابتدرت لسلوك هذه الطرق باستقصاء ما عند هذه الفرق، مبتدئًا بعلم الكلام، ومثنيًا بطريق الفلسفة، ومثلثًا بفعل ما في الباطنية، ومربعًا بطريق الصوفية.

ترى ما هو التقليد الذي فارقه والذي يأبى الرجوع إليه، أيكون التقليد الذي أراد هو تعلم الكتاب والسنة، ولكن الجواب أتى من كتاب الأحياء عن طريقة هذا التقليد، يقول الغزالي معرفًا العلوم الدينية، للأسف الشديد، يقول: العلوم الدينية المأخوذة بطريق التقليد، من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

وذلك يحصل بالتعلم لكتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- وفهم معانيهما بعد السماع، فهل هذا هو الذي يقصده بالتقليد الذي لا يريد الرجوع إليه، والذي بسبب كراهيته لهذا التقليد حصر الحق فقط في الأربع فئات المذكورة فقط؟ الله تعالى أعلم.

ولكن هذه عبارته في الإحياء يقول: إن العلوم الدينية هي المأخوذة بطريق التقليد من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وطبعًا اتباع النبي لا يطلق عليه تقليد يطلق عليه إتباع، إتباع القول بدليل، أما التقليد فهو الأخذ بقول الغير دون معرفة دليله.

يقول: وذلك يحصل بالتعلم لكتاب الله، وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- وفهم معانيهما بعد السماع، فنعتبر كده الآن نحن بنطرق باب البحث، أو بنرحل مع الغزالي في بداية الرحلة الطويلة مع هذه الفرق الأربع بحثًا عن الحق الذي أدرك في النهاية أنه رجع من هذه الرحلة بخفي حنين، وما استفاد من ذلك إلا إذا عاد إلى علم النبوة كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

فنقف عند هذا الباب، ونستأنف الكلام إن شاء الله تعالى فيما يأتي، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم سبحانك اللهم ربنا وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

جزى الله الشيخ خير الجزاء، ونفعنا وإياكم بما سمعنا من العلم ونسأل الله جل وعلا أن يرفع مكانة الشيخ في المهديين، وأن يجعله علمًا من أعلام الهدى والدين ولا تنسوننا وتنسوا الشيخ من دعوة صادقة بظهر الغيب، وتقبلوا تحيات إخوانكم في تسجيلات السلف الصالح بالأسكندرية، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.